الباب الأول

ليبيا من 1510- 1911

تمهيد تاريخي : تطور الأوضاع السياسية في ليبيا قبيل الغزو الأسباني

الفصل الأول :الاحتلال الصليبي (الأسباني- المسيحي) لطرابلس الغرب 1510- 1551

الفصل الثاني : أوضاع ليبيا السياسية أبان الحكم العثماني الأول 1551- 1711

لفصل الثالث : أوضاع ليبيا السياسية أبان الحكم القره مانلي 1711- 1835

لفصل الرابع :أوضاع ليبيا السياسية إبان الحكم العثماني الثاني 1835- 1911

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد تاريخي

تطور الأوضاع السياسية في ليبيا قبيل الغزو الأسباني

ارتبطت الملامح السياسية في ليبيا خلال القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين، بأهميتها الجغرافية والإستراتيجية. فلقد شهدت هذه الفترة الزمنية بروز قوتين متواجهتين دينيا وسياسيا. كانت تمثل إحداها، القوة الإسلامية بزعامة الأتراك العثمانيين. وكانت القوة الأخرى هي القوة المسيحية الكاثوليكية بزعامة الإمبراطور الأسباني فرديناند.

حاولت كل من هاتين القوتين، الالتفاف حول سواحل البحر المتوسط، الشمالية والجنوبية. وكانت ليبيا آنذاك مقسمة إلى ثلاثة أقاليم هي: طرابلس الغرب، برقة وفزان. ولم تكن لها حكومة مركزية واحدة، فقد تنازعتها عدة قوى مختلفة، وتعرضت لكثير من الهجمات الأوربية، فكثرت فيها الاضطرابات، وانتشرت الأمراض التي فتكت بالسكان.

وكانت الأوضاع السياسية كالتالي:

1- **طرابلس الغرب:** ونقصد بها منطقة الشمال الغربي من ليبيا، بدءا من جبال نفوسة حتى الساحل المتوسطي عند مدينة سرت [1]. وقد خضعت هذه المنطقة لحكم الحفصيين منذ القرن الثاني عشر(1126 م)، وباشروا الحكم عليها من تونس، فعينوا لها الولاة. ثم زال حكمهم عنها نتيجة لضعفهم، فخضعت لحكم أصحاب النفوذ المحليين، كيني ثابت (1324-1400) م، وهم من طليعة العائلات البدوية المستقرة والثرية. وعادت سلطة الحفصيين مرة أخرى 1400-1460 م، حتى تمكن الشيخ منصور من حكمها 1460-1471 م، ودانت له بعض مناطق ترهونة، بني وليد، مسلاتة، زوارة وغريان، وبعد وفاته في العام ذاته، تولى حكم طرابلس، أحد أعيانها المسمى يوسف، الذي حكم هذه المنطقة لمدة عشر أعوام حتى 1480 م، ثم تمت البيعة للمدعو مامي في الجامع الكبير، وكان شيخا طاعنا في السن فتوفي عام 1492 م. وفي العام نفسه تولى حكم البلاد،

أحد شيوخ طرابلس وهو عبد الله بن شرف، الذي يكتسي حكمه بأهمية خاصة بفعل الصراع القائم في حوض البحر المتوسط بين الإمبراطوريتين العثمانية والأسبانية.

كان هذا الشيخ ضابطا متقاعدا، تمتع بالورع والتقوى والزهد والتعبد حتى لقب بالمرابط وبأبي البركة. وهذه الصفات كانت سببا في اختيار أهالي طرابلس له حاكما عليهم[2]،

وأستمر حكمه حتى عام 1510 م، حيث وقعت البلاد في قبضة الاحتلال الأسباني.

وكانت سرت تتبع أسميا لحكومة طرابلس، وتتميز بأهمية تجارية، كواسطة بين داخل القارة الأفريقية، وأوربا في نقل الرقيق وريش النعام والجلود والسنور والمسك وغير ذلك. كما شكل أهلها قوة عسكرية لعبت دورا مهما في ردع غارات الأعراب والذود عن استقلالهم، إزاء محاولات الحكام الحفصيين السيطرة عليهم. وقد ظلت صحراء سرت، بعيدة عن الاستقرار السياسي والسكاني.

2- **منطقة برقة**: كانت برقة تابعة للحكومات المركزية في مصر، كالفاطميين والأيوبيين والمماليك. إلا أن هذه التبعية لم تكن دوما كاملة السيادة، لكثرة الحركات الانفصالية والبعد عن مركز الحكم.و ظلت السلطة الفعلية في أيدي زعمائها و شيوخ القبائل فيها، من بني هلال، و بني سليم، الذين ألحقوا أضرارا بالغة بالمباني العمرانية، و تقهقرت الزراعة و اضمحلت التجارة، وسادت المنطقة الفوضى و عمها الفقر.

و لما احتلت القوات العثمانية بلاد الشام 1516 م، و احتلت مصر 1517 م، انتقلت التبعية السياسية الاسمية في برقة للدولة العثمانية.

3- **منطقة فزان**: تمتعت فزان باستقلال ذاتي نظرا لظروفها الصحراوية، بعدها عن الساحل وصعوبة المولصلا ت آنذاك، و قد تميزت هذه المنطقة بثرائها

نتيجة التبادل التجاري مع دواخل القارة الأفريقية، و بعض منتجاتها الزراعية كالتمور.

فتوالت خلال القرن الخامس عشر ميلادي عدة سلطات سياسية حكم فزان، بدءا من خضوعها للسلطة الكانمية، نسبة إلى حكام كانم، ثم لقبائل الجرمانية، الممتدة إلى وادي الآجال كذلك خضعت لسلطة الطوارق التي كانت منافسة للجرمان.

استغل أحد أدلاء قوافل الحجاج الفاسيين، رصيده العلمي و الديني، وهو الشيخ محمد الفاسي، فتولى حكم هذه المنطقة، بمساعدة شيوخ قبائلها [3]، و وسع نفوذه تجاه جرمة للسيطرة على كامل منطقة فزان عام 1550 م، مؤسسا بذلك دولة وراثية استمرت حتى نهاية القرن السادس عشر و بداية القرن السابع عشر الميلاديين.

obeikandl.com

هوامش التمهيد التاريخي

1) محمد الحراري عبد السلام، ليبيا بمركبات الرجالين المغاربة في القرنيين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، طرابلس: شعبة التثقيف والاعلام، ط1، 1998، ص62.
2) شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة محمد عبد الكبير الوافي، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط2، 1983، ص63. انظر أيضا: كوستانزيو برنيا، طرابلس من 1510-1850، تعريب، خليفة محمد التليسي، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، 1985، ص24.
3) عبد اللطيف محمد البرغوثي، تاريخ ليبيا الاسلامي من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي، بيروت: دار صادر، 1393 هـ، ص445.

obeikandl.com

الفصل الأول

الاحتلال الصليبي (الأسباني- المسيحي) لطرابلس الغرب 1510- 1551

المبحث الأول : أسباب الغزو الأسباني لطرابلس الغرب

المطلب الأول : المصادر العربية وتفسيرها الخيالي للغزو الأسبان

المطلب الثاني : الدوافع الحقيقية للغزو الأسباني

المطلب الثالث : تشكيل وإعداد الحملة الصليبية الأسبانية لغزو طرابلس ورد فعل السكان وما ترتب على ذلك

المبحث الثاني : سقوط طرابلس الغرب في أيدي القوات الأسبانية 1510- 1530

المطلب الأول : أصداء سقوط طرابلس بيد القوات الأسبانية

المطلب الثاني : المقاومة الشعبية الليبية للاحتلال الأسباني

المطلب الثالث : تنازل الملك شارل الخامس عن طرابلس لفرسان مالطا 1530- 1551

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

أسباب الغزو الأسباني لطرابلس الغرب

المطلب الأول: المصادر العربية وتفسيرها الخيالي للغزو الأسبان

لعله من المفيد القول الإشارة، أنه لا نكاد نجد في المصادر التاريخية العربية القريبة من عهد الغزو الأسباني لطرابلس الغرب، ما يساعدنا على تقصي الأسباب الواضحة لهذه الغزوة الصليبية الشرسة، على بلاد المغرب العربي بصفة عامة، وطرابلس الغرب بصفة خاصة.

فقد حاولت بعض الروايات الشعبية، تفسير الغزو الأسباني لهذه المدينة، تفسيرا خياليا، يشير إلى أنه كان هناك من بين السكان خوّنة، سلموها للنصارى. و تشيربعض هذه الروايات إلى أن حاكم طرابلس (الشيخ عبد الله ابن شرف)، دفع به تعصبه الديني إلى إعداد سفن شراعية صغيرة، للقيام بالقرصنة ضد النصارى، فقاموا بمهاجمة بلاده. وكأن الأمر مجرد ردة فعل ليس إلا !

وهناك روايات أخرى ترجع هذا الغزو إلى حالة الترف التي عاشها أهل طرابلس الغرب مما جعلهم يهملون التسليح، لدرجة أنه لم يكن لديهم السكاكين في منازلهم، الأمر الذي أدهش بعض التجار الأسبان عند قدومهم بسفينتين يحملان البضائع إلى ميناء طرابلس، فخرج إليهم أحد التجار الطرابلسيين، فاشترى بضاعتهم، ونقد لهم ثمنها، ثم استضافهم أخر، فصنع لهم طعاما، ودق عليه ياقوته ثمينة، فلما فرغوا، قدم لهم بطيخا أخضرا، ولم يكن لديه سكينا لقطعه، ولا عند الجيران، فاضطروا للذهاب إلى السوق فأتوا بسكين.

ولما عاد هؤلاء التجار إلى أسبانيا، وقالوا لملكهم ما رأينا بلدا (طرابلس) أكثر منها مالا وأقل سلاحا، وأعجز أهلا عن مدافعة عدو، فجهز الملك حملة عسكرية لاحتلالها [1].

هكذا يتضح لنا من خلال العرض السابق، مدى المبالغة في الخيال. لكننا نستنتج أن طرابلس الغرب كانت بلادا غنية، وأن أهلها يعيشون في رغد من العيش ومنشغلون بالتجارة ومسالمون.

المطلب الثاني: الدوافع الحقيقية للغزو الأسباني لطرابلس الغرب

يذكر بعض المؤرخين أن ظهور الدولة العثمانية كقوة عظمى في شرق البحر المتوسط، أصبح يهدد المصالح الأوربية الاستعمارية والتجارية، لذلك لم بهمل الملك الأسباني هذه القوة الناشئة والفتية، التي رفعت شعار حماية الإسلام والمسلمون أينما كانوا.

وبعد سقوط غرناطة 1492 م، التي كانت تمثل أخر معقل إسلامي في شبه جزيرة ايبيريا، لا شك أن نشوة النصر والفوز التي امتلأت بها روح الأسبان، بقيادة ملكهم فرديناند داراغونا، وزوجته الملكة ايزابيلا دى كاستيليا المتوفاة عام 1504 م، كانت الحافز الأساسي في تتبع المسلمين الفارين بدينهم وأرواحهم من الأندلس إلى الساحل الشمالي للقارة الأفريقية.

لذا قرر الملك الأسباني ورئيس وزرائه المدعو اكسمينس* الكاثوليكي المتعصب، احتلال طرابلس الغرب لتكون قاعدة الانطلاق شرقا وغربا في حملات التنصير والاستعمار الأسباني. وكان اختيارهما لهذه المدينة يعود لعدة أسباب منها [2]:

1- كانت طرابلس الغرب، أغنى المناطق المغاربية عموما، باقتصادها التجاري النشط الحيوي، يشهد على ذلك القول بأن تونس كانت غنية بالأثاث والمعدات، بينما تفوقت طرابلس في الذهب والفضة واللآليء، وكل السلع، بفضل التجارة [3].

2- كانت تحتل سوقا تجاريا كبيرا ما بين أوربا وأواسط أفريقيا، وكذلك ما بين مصر وباقي الأقطار المغاربية، يساعدها في ذلك موقعها الجغرافي الممتاز. فعلى مدى عصور التاريخ، كانت هناك تجارة واسعة في هذه المدينة، وكانت

تـتـردد عليهـا الـسفن المدنيـة والحربيـة، وتكثـر فيهـا المـساجد والمـدارس والمستشفيات، وكانت شوارعها أكثر تنظيما من شوارع تونس [4].

إذن كانت الأسباب الحقيقية للغـزو الأسـباني تعـود بالدرجـة الأولى إلى الأوضـاع السياسية التي كانت سـائدة آنـذاك، والى الـسياسة الأوربيـة المتعـصبة الراميـة إلى ملاحقـة المسلمين والانتقام منهم بعد سقوط القسطنطينية على يد القوات الإسلامية العثمانية عـام 1453م، وكـذلك بعـد طـرد المـسلمون مـن الأنـدلس بـسقوط غرناطـة 1492م، ونتيجـة الصراع البحري الإسلامي، الصليبي في حوض البحر المتوسط، مما يجعلنا نـضع الحمـلات الأسبانية على الشمال العربي الأفريقي، امتدادا للحملات الصليبية على المـشرق العربـي من قبل.

المطلب الثالث: تشكيل وإعداد الحملة الصليبية الأسبانية لغزو طرابلس ورد فعل السكان وما ترتب على ذلك

دب الحماس في كافـة أرجـاء أسـبانيا وايطاليـا، اثـر الـدعوة الـصليبية للكاردينـال أكسمينس، فأصدر الملـك الأسـباني فرديناند، قـرارا بتـشكيل الحملـة العـسكرية، بقيـادة الكونت بيثرو دي نافا، قائد الأسطول الأسـباني [5]. وكانـت تتكـون مـن مائـة وعـشرين سفينة أسبانية، ونحو خمسة عشر ألف جندي أسـبابي، بالإضـافة إلى مـشاركة ثلاثـة ألاف مـن الجنود المالطيين والإيطاليين، مع مئات أخرى من المتطوعين والقراصنة والمغامرين [6]. في حـين أشارت بعض المراجع إلى أن طرابلس، هوجمت بحوالي أحد عشرة ألف جندي [7].

اذن أعد للأمر عدته من قوات ضخمة وأسطول كبير ومشاركات لقـوات أوربيـة ومرتزقة، وليس الأمر، مجرد نزهة، ولم يكـن وفقـا لروايـات التجـار كمـا ذكـرت المـصادر العربية المعاصرة، بـل أن حكومـة أسـبانيا كانـت علـى علـم أن سـكان طـرابلس سـوف يدافعون على مدينتهم بكل ما أوتوا من إمكانـات فهـم ليـسوا أعجـز أهـلا عـن مدافعـة عدو.

رأى قائد تلك الحملة العسكرية، الكونت بيترو دي نافارا ومجلسه العسكري، تحييد القوة المغاربية القريبة من طرابلس الغرب، لمنعها من التدخل ومساعدة إخوانهم الطرابلسيون. ولتحقيق هذا الهدف، توجه بأسطوله نحو الجزائر، فاستولى على تلمسان والمرسى الكبير عام 1505 م، كذلك استولى في 5 يناير 1510 م، على موانئ وهران وبجاية، وحطم ما فيها من قطع بحرية عسكرية. ثم توجه بحملته العسكرية نحو تونس، وقام بمحاصرتها، وأرغم حاكمها الحفصي على الالتزام بالطاعة والولاء للحكم الأسباني.

عاد بعد ذلك بقواته إلى ميناء فافيتتال الإيطالي بهدف إراحة جنوده، وإعادة تشكيل قواته، لوصول قوات بحرية أخرى من نابلي وصقلية. ثم توجهت حملته العسكرية إلى ميناء غوزو المالطي لتزود بالمياه والغذاء، والاستعانة بعدد من المرشدين المالطيين الذين خبروا السواحل الليبية الطرابلسية، ومنهم بيلا (Abella) الذي كان على معرفة بمداخل ومخارج مدينة طرابلس، لتردده بصورة مستمرة كتاجر محترف على الموانئ الطرابلسية [8].

وقبل التوجه إلى الساحل الطرابلسي، عرج الأسطول الأسباني على جزيرة جربة في يوليو 1510م، كمحاولة لاحتلالها لتكون قاعدة انطلاق للقوات الأسبانية باتجاه الأراضي الطرابلسية، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل، بسبب شدة مقاومة أهلها [9].

ثم أبحرت قطع الأسطول الأسباني، باتجاه طرابلس الغرب في فجر 20 من نفس الشهر. وكانت أخبار تلك الحملة العسكرية الأسبانية، قد تسربت لأهالي طرابلس قبل وصولها بنحو شهر، مما أدى ببعض الأهالي للهجرة إلى الدواخل، خوفا على أرواحهم وأموالهم، ولم يبق في طرابلس، سوى المجاهدون الذين استعدوا للدفاع عن مدينتهم بقيادة حاكمها الشيخ عبد الله بن شرف، وصعدوا فوق الأسوار وعلى القلاع [10].

أورد الجنرال قائد الحملة الأسبانية، الكونت بيترو دي نافارا، قصة احتلال مدينة طرابلس الغرب في رسالة (تقرير) بتاريخ 29 يوليو من نفس العام، كانت مرسلة إلى

نائب الملك الأسباني في صقلية بعد أربعة أيام من هذا الاحتلال الذي تم يوم 25 من الشهر نفسه.

وقد تضمنت هذه الرسالة المعلومات التاريخية التالية:

نزل إلى البر في ساعات قليلة نحو 6,000 جندي قان نصفهم بمهاجمة المدينة (طرابلس)، وقام النصف الأخر بحماية المهاجمين، وتأمين عملية الهجوم ضد المقاومين العرب من المناطق الريفية المجاورة. وقد استولى المهاجمون على المدينة بعد مقاومة عنيفة، فقد كان الطرابلسيون يقاومون بعنف [11].

باستقراء الرسالة السابقة يتضح لنا مدى الإغراق في الخيال للروايات السابقة التي تقول أن الطرابلسيين كانوا مجردين من السلاح. فقد دلل نص هذه الرسالة على توكيد أن القتال كان يدور عنيفا من البر والبحر، وكان أهالي طرابلس يردون على الغزاة بقذائفهم، وبإلقاء الصخور والسهام. وان القتال قد تواصل، وأصبح الفريقان في حالة من التعب والإعياء [12].

أخيرا بعد هذه المقاومة، تمكن بضعة جنود من فتح البوبات، فدخلت بقية الجنود. عندئذ أصبح من الصعوبة بمكان مواصلة الأهالي المقاومة والصمود. فكفوا عن القتال، وانسحب الشيخ عبد الله بن شرف مع أسرته إلى داخل السرايا، واحتمى بقية المقاومين في الجامع الكبير، فيما ظلت مجموعة من هؤلاء مستمرة في القتال داخل الأبراج حتى هبوط الليل، فاقتحم الغزاة الجامع الكبير، وقتلوا أكثر من ألفي شخص، تلا ذلك الانسحاب من الأبراج.

وبعد مقاومة لم تدم طويلا، سلّم الشيخ عبد الله بن شرف، نفسه، شريطة عتق رقبته هو وصحبه، فألقي القبض عليه، وتم نقله بعد ذلك إلى جزيرة صقلية، وأودع السجن إلى أن رأى الأسبان أن من مصلحتهم إعادته لمدينة طرابلس لتهدئة الأوضاع فيها وامتصاص غضب الجماهير الثائرة ضدهم، فعاد هذا الشيخ بعد عشرة سنوات، كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد.

تم الاستيلاء على طرابلس الغرب يوم 25 يوليو 1510 م، ورفع العلم الأسباني عليها، بعد إراقة دماء أهلها دفاعا عن أرضهم وشرفهم ودينهم، فحيثما توجهت، تعثرت الأرجل في جثث الأطفال والنساء والشيوخ والشباب. فكان الاحتلال مجزرة إرهابية بكل ما في الكلمة من معنى من أجل مرضاة البابوية والصليب.

فقد اعترفت المصادر الأسبانية بمقتل نحو ثلاثمائة من رجالهم منهم كبار الضباط وأمرائهم كقائد الأسطول والمساعد الأول للقائد العام للحملة. وتختلف المصادر في عدد القتلى الطرابلسيين فبعضها يشير إلى نحو ستة آلاف قتيل وأسر خمسة عشر ألفا والأخرى تذكر أن عدد القتلى نحو خمسة ألاف وأعداد لا تحصى من الهاربين. أمّا الغنائم فكانت ضخمة من الذهب والجواهر والفضة والأثاث بالإضافة إلى عدد من البواخر وثروات المدينة الأخرى [13].

بعد ذلك، عهد قائد الحملة العسكرية الأسبانية (الكونت بيترو دي نافارا) إلى مساعده (دون خايمي بيدرو ريكيزيس) بتولي حكم طرابلس الغرب، وترك له من القوات والمعدات والأسلحة، ما يضمن له السيطرة الكاملة عليها، ثم عاد مع بقية قواته مصطحبا معه عبد الله بن شرف الدين وأسرته وعدد من أتباعه.

المبحث الثاني

سقوط طرابلس الغرب في أيدي القوات الأسبانية 1510- 1530

المطلب الأول: أصداء سقوط طرابلس بيد القوات الأسبانية لدى دول أوربا والعالمين العربي والإسلامي:

بمجرد سقوط مدينة طرابلس الغرب في يد الغزاة الأسبان، عم الفرح والابتهاج غالبية دول الجنوب الأوربي، فقد أقام نائب الملك الأسباني في صقلية احتفالات كبيرة، عبرت عن مدى سعادة سكان هذه الجزيرة بهذا النبأ، وصنعوا وساما تذكاريا بتلك المناسبة.

كما شجع هذا النجاح العسكري للحملة الأسبانية على طرابلس، ملوك أسبانيا على أن يدفعوا بمحملات مماثلة نحو أفريقيا. فقاد الملك فيليب الثاني بنفسه حملة، كانت تهدف إلى توسيع رقعة انتصاراته ضد المسلمين في الشمال الأفريقي [14].

استمرت مهرجانات فرح سقوط طرابلس في دول أوربية أخرى، فدعا مندوب البلاط البابوي في بولونيا، جميع المسيحيين إلى تنظيم مظاهرة فرح كبيرة، وتبادل حاكم البندقية التهاني مع ملك أسبانيا ونائبه في صقلية. كما شاهدت روما احتفالات كبيرة بهذه المناسبة، ونظم البابا موكبا دينيا، ووصلت التهاني من المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا في رودس، حاثا الأسبان على مواصلة حملاتهم ضد أفريقيا الشمالية، عارضا خدماته في هذه المهمة (السامية) حسب زعمه (15)!

إن هذه الكرنفالات السابقة، تذكرنا بمظاهر البهجة والفرح لدا أوربا الصليبية عندما سقطت المدن الإسلامية في أيدي الصليبين أثناء الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، على المشرق العربي.

كان ذلك بالنسبة لأوربا، لكن الأمر أختلف بالنسبة للعالمين العربي والإسلامي، حيث أثار سقوط طرابلس بيد الأسبان مشاعر الأسى والحزن في نفوس العرب

والمسلمين، فاجتمع عدد من المغاربة كانوا في الإسكندرية بمجرد سماعهم نبأ سقوط طرابلس، اجتمعوا في أحد المساجد، وتشاوروا في الأمر، وكتعبير عن غضبهم قاموا بمهاجمة فندق للأسبان في الإسكندرية، وألحقوا به أضرارا بالغة [16]. ولم يختلف الأمر في باقي الأقطار العربية، لكن هذا التعبير لم يتجاوز، إظهار مشاعر الحزن والأسى بالقلب واللسان، وكان ذلك أضعف الإيمان. ولعل السبب في ذلك، كان يعود إلى أوضاع البلدان العربية السياسية المضطربة.

أما الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامي آنذاك، فقد عبرت عن غضبها واحتجاجها، وأعلنت أنها سوف تدافع عن طرابلس، لأنها كانت تدرك أن الخطر يهدد بقية ممتلكاتها، ويضع تجارتها وبحريتها في خطر عظيم.

المطلب الثاني: المقاومة الشعبية الليبية للاحتلال الأسباني

بدأت حركة المقاومة الشعبية الطرابلسية منذ اللحظة التي وقعت أقدام الغزاة الأسبان أرض هذه المدينة. فانتظموا في مجموعات أخذت في مهاجمة معاقل المحتلين فقضّت مضاجعهم وجعلتهم يعيشون حالة من الاضطرابات والقلق وعدم الاستقرار. وأقدم سكان ضواحي مدينة طرابلس بمهاجمة أسوار هذه المدينة وتسلقوها، لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق أية انتصارات على هؤلاء المحتلين الأسبان، بسبب تحصنهم داخل القلعة والأبراج المحيطة بها، وما كانوا يمتلكونه من معدات وذخائر.

بعد عام من هذا الاحتلال في فبراير 1511 م، أعاد المجاهدون الكرّة من جديد، حيث أمدهم والي تونس (محمد بن الحسن الحفصي) بقوة كبيرة، فأصبح عدد المهاجمون نحو أربعين ألف وتمكنوا من حصار طرابلس لمدة سبعة شهور، لم يتمكن الأسبان من مغادرة أسوار قلعة طرابلس طيلة مدة الحصار، ومنعوا من أية محاولة اتصال لهم بالدواخل والمراكز الساحلية الأخرى. ولم ينقذهم من هذا الحصار سوى لجوئهم إلى تجميع كتلة من المتفجرات القوية، وألقوا بها خارج أسوار طرابلس وسط حشود المجاهدين، فقتلت وأصابت عددا منهم واضطروا لفك الحصار [17].

أصبح الليبي مصدر رعب مقيم لهؤلاء الغزاة. فكانت أسوار طرابلس، لا تفتح إلا سويعات قليلة من النهار، وتغلق كليا في الليل، ويظل الحراس مرابطين فوق الأسوار وأبراج القلعة، وأيديهم على الزناد تأهبا لأي طارئ.

أمام هذا الواقع المخيف الذي عاشته القوات الأسبانية، استنكف الأسبان عن الهجرة إلى طرابلس مما دفع بالملك الأسباني إلى فتح باب الهجرة الموسعة للأوربيين الراغبين في الإقامة والاستيطان بمدينة طرابلس الغرب، وفي نفس الوقت، أصدر نائب ملك صقلية منشورا بتاريخ 16 أكتوبر 1511 حاثا فيه الإيطاليون والأسبان بالهجرة إلى طرابلس الغرب، حيث المزايا بوجود الأراضي الزراعية الخصبة والإعفاء من الضرائب والرسوم لمدة عشرة أعوام غير ذلك من المحفزات. ومع ذلك لم يستحب له أحد، فأقدم على إغراء المجرمين والخارجين على القانون في تلك الدول، بأن الدولة سوف تعفو عن جرائمهم المدنية والجنائية، إذا هاجروا إلى طرابلس وسكنوها، فتحايل بعضهم على هذا القانون، فكانوا يحضرون إلى طرابلس لمدة قصيرة، فإذا ما حصلوا على العفو غادروها بلا رجعة [18].

لقد حول المجاهدون الليبيون، حياة أولئك الغزاة إلى جحيم واستنزاف دائم ورعب مقيم، قتال ومعارك يومية، وإفلاس اقتصادي وخزينة خاوية، وعدم الشعور لا بالأمن ولا بالاستقرار.

حاولت السلطات الأسبانية المحتلة، استرضاء الليبيين ليكفوا عن مقاومتهم وكان أبرز عمليات الاسترضاء هذه، هو إطلاق سراح عبد الله بن شرف وإعادته من منفاه عام 1520 م إلى طرابلس، لتهدئة الأوضاع.

لكن المجاهدين لم يكفوا عن مواصلة قتالهم، بل عملوا بطريقة أكثر شدة، فكان على تلك السلطات إيجاد مخرجا سريعا من هذا المأزق، يحفظ ماء الوجه. وزاد الأمر خطورة لهؤلاء الغزاة، أن الإمبراطورية العثمانية عام 1520 م، قد أثبتت وجودها في الركن الغربي من البحر المتوسط، وذلك بما قدمته من مساعدة عسكرية للأخوين عروج وخير الدين بربروصا، حين تم الإعلان عن الجهاد ضد الأسبان خاصة، والدول الأوربية

عامة، وتحولت السواحل الجزائرية إلى قاعدة لهما للقيام بعملياتهما العسكرية، ضد الحاميات الأسبانية في المدن العربية المحتلة، غير أن عملياتهما الجهادية لم تكن قد وصلت إلى طرابلس الغرب.

أرسل أهالي مدينة تاجوراء (مركز المقاومة)، وفدا إلى استانبول عام 1520م، طالبين المساعدة من السلطان العثماني (سليم الأول)، الذي استجاب لهم، وأرسل معهم فرقة من الجنود، بقيادة مراد أغا، الذي أصبح قائد المقاومة الشعبية ضد القوات الأسبانية والمالطية في تاجوراء [19].

بعض المؤرخين يشككون في صحة إرسال مثل هذا الوفد، عبر هذه المسافة الطويلة، ويرجح إمكانية الاتصال بالأسطول العثماني الذي كان مرابطا قرب السواحل الجزائرية، بقيادة درغوث باشا، لمساعدة القرصان خير الدين بربروصا [20]. وفي كل الأحوال تمكنت بعض القوات العثمانية من النزول في تاجورة والانضمام للمقومة الليبية.

المطلب الثالث: تنازل الملك شارل الخامس عن طرابلس لفرسان مالطا 1530 - 1551

نتيجة توالي الأحداث الأوربية، التي أذهلت الملك شارل الخامس، وصرفته عن التفكير في التشبث بطرابلس الغرب، وهي الحروب الإيطالية عام 1227 م بالإضافة إلى شدة المقاومة الشعبية الليبية، واستجابة إلى رجاء البابا كلمنت السابع الذي كان يعطف على حركة فرسان القديس يوحنا (فرسان مالطا).

هذه الأسباب، جعلت الملك شارل الخامس يقبل على التنازل عن طرابلس الغرب إلى فرسان مالطا، فوقع في 23 مارس من نفس العام مرسوم التنازل، وقام الحاكم الأسباني لطرابلس الغرب عام 1530م، باسم الملك شارل الخامس بالتنازل إلى قيادة هيئة فرسان مالطا، نظير اشتراكهم في مقاومة أعمال البحرية العثمانية، الذي كان يشنها خير الدين بربروصا، ولم يطلب هذا الإمبراطور سوى مبلغ من النقد الذهبي.

والسؤال من هم فرسان القديس يوحنا؟

هم في الأصل هيئة خيرية دينية، كانت تتولى رعاية أحد الملاجئ في القدس، وتقديم المساعدة للمحتاجين من الحجاج المسيحيين الذين كانوا يقصدون الأراضي المقدسة في فلسطين.

وعندما قامت الحروب الصليبية، تحولت هذه الهيئة الخيرية إلى منظمة دينية عسكرية، وضعت نفسها تحت رعاية القديس يوحنا. ومع أن أعمال هذه المنظمة، كانت تتركز في القيام على شؤون المستشفيات، غير أنه أصبح لرجالها مهام عسكرية، وشاركوا في الدفاع عن الأراضي التي احتلها الغزاة الصليبيون، وصارت لهم أملاك شاسعة في بلاد الشام.

وبعد أن حررت قوات صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس عام 1187 م، من الصليبيين، أستقر بعض هؤلاء الفرسان في مدينة عكا حتى عام 1291 م، حيث تم تحرير كامل التراب الفلسطيني من الصليبيين. فاتجهت هيئة الفرسان إلى جزيرة قبرص، وتمكنوا من احتلال جزيرة رودس، وبعض الجزر المجاورة لها عام 1506 م، وأقاموا بها دولة صليبية تحت حماية البابا.

وفي عام 1522م، تمكنت القوات العثمانية في عهد السلطان سليم الأول من طردهم من رودس. فاتصلت قيادة هؤلاء الفرسان بعد ذلك عام 1524 م، بالملك الأسباني (شارل الخامس) مبدية رغبتها في مالطا أو طرابلس الغرب. فتم اختيار ثمانية من هؤلاء الفرسان بمثابة مندوب عن كل لغة أو جنسية، حيث كانوا مقسمين إلى ثمان لغات أو أمم[22]. فقام هؤلاء الثمانية بزيارة مالطا وطرابلس، وبعد هذه الزيارة، قدموا للملك الأسباني تقريرا حول أحوال قلعة وميناء طرابلس.

بعد تنازل الملك شارل الخامس عن طرابلس لفرسان مالطا، نتيجة للأحداث السابق ذكرها، توالى على حكمها عشرة من زعماء هيئة فرسان مالطا من 1530 حتى 1551 وهم[23]:-

1-	جاسبار دي فاليرس سانجوسا	1530-1531
2-	برنار دي نوما شادو	1531-1532
3-	اوريليو بو تيجلا	1532-1533
4-	غارسيا كورتس	1533-1535
5-	جورج سكيلبخ	1535-1537
6-	فرناردو برا كامونتي	1537-1544
7-	كريستوفر دي سوليس فرفان	1544-1546
8-	جيوفاني لافاليتي (مرشد أكبر)	1546-1549
9-	بيترو نونيز دي هريرا	1549-1551
10-	جاسبار دي فالليس	ابريل 1551-أغسطس 1551

وكان نظام الحكم لحكام هيئة فرسان مالطا في طرابلس الغرب كما يلي:

1- حاكم على طرابلس يقيم في قلعتها يعاونه في الغالب نائب، وفارس يشغل منصب أمين الخزانة، ويهتم بالأمور المالية ويشرف على حركة الجمارك (الصادرات والواردات).
2- كانت قلعة طرابلس تضم بيت الحاكم ونائبه وبيوت الفرسان والمخازن، وكان يقيم بصفة عادية خمسون شخصا من الفرسان ومائتين من الجنود منهم اثنى عشر مدفعيا، تم تجنيدهم من مالطا وايطاليا.
3- كانت طرابلس تضم حامية من أسر الفرسان والمشاة وعدد هذه الحامية لا يزيد عن مائة أسرة وقد نقص عددها إلى نحو ثمانين.

كانت سلطة الحاكم لا تمتد إلى أبعد من نطاق مدينة طرابلس وبعض القرى الواقعة على الساحل الغربي مثل جنزور والماية وتدفع هذه القرى الضرائب بطريقة غير منتظمة.

ولم يكن وضع هذه الهيئة مريحا في إطار الأوضاع السياسية السائدة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، فإذا كان العقد الأول من هذا القرن، أسبانيا فان العقد الثاني كان عثمانيا.

طرد فرسان مالطا من طرابلس 1551

كان حاكم طرابلس الغرب عام 1551 م هو جاسبار دي فاللیرس وقد ألح على المرشد الأكبر لفرسان مالطا في طلب المزيد من الدعم العسكري لأنه كان يتوقع هجوما بحريا عثمانيا.

حاول مراد أغا دخول طرابلس لكنه عجز عن ذلك فطلب المدد من السلطان العثماني (سليمان القانوني) وبقى على استعداد وفي انتظار الإمدادات من استانبول وصادف في هذا الوقت حصار الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا لجزيرة مالطا التي كانت معقل فرسان القديس يوحنا، غير أن سنان عجز عن فتحها بسبب قوة تحصيناتها فاتجه إلى طرابلس لمساعدة مراد أغا في طرد هيئة الفرسان الذين كانوا يحتلون هذه المدينة.

نزلت بعض قوات الأسطول العثماني في زوارة، ثم تابع سيره نحو طرابلس الغرب، حيث ألقى بمراسيه قرب تاجوراء. فأسرع مراد أغا لاستقبال قائد الأسطول سنان باشا ونائبه درغوث باشا. ورسم الجميع خطة العمل العسكري للاستيلاء على طرابلس.

وفي يوم 5 أغسطس 1551 م بدأوا بعملية حصارها برا وبحرا، وأرسل سنان أحد فرسانه رسولا إلى الحاكم جاسبار دي فاللیس، طالبا منه التسليم. غير أنه رفض ذلك قائلا انه يفضل الموت على الاستسلام [24].

ركّز الأسطول البحري العثماني حصاره في الجبهة الشرقية من طرابلس الغرب، في حين ركّز مراد أغا ومعه المقاومة الشعبية الليبية مدافعهم ضد قلعة طرابلس، وقام المهاجمون برا في يوم 8 من نفس الشهر بحفر الخنادق جنوب شرق القصر (منطقة الظهرة حاليا).

أخذت مدفعية هيئة فرسان مالطا تقصفهم من أبراج قلعة المدينة، مما أجبر المهاجمون على تغيير خطتهم ولجأ وا إلى الزحف في خنادق أرضية تجاه طرابلس. وفي 11 من نفس الشهر كانت فرق المدفعية للمجاهدين تقصف قلعة طرابلس وهب الأسطول لمساندة مراد أغا، مساندة قوية بقصف سور القلعة وتمكن من هدم حتى المدرج، مما أدى إلى انهيار معنويات جنود فرسان مالطا، فانقسموا على أنفسهم، وحاول قسم منهم أن ينجو بنفسه ويهرب من هذا الحصار فوق بعض المراكب الراسية في ميناء طرابلس في حين رأى بعضهم الاستمرار في المقاومة.

دعا الفارس هريرا ((Herrera أمين الخزانة إلى النظر في إنقاذ الجميع دون تمييز. وطالب الحاكم بجمع المجلس وشرح لهم الحالة السائدة وطلب من الحاضرين إبداء رأيهم وتقرر في هذا الاجتماع، المفاوضات وصعد القس بيترو دي فاروس فوق السور، رافعا العلم الأبيض من أجل ذلك.

خرج المندوبان الممثلين عن فرسان مالطا من قلعة طرابلس وقدما إلى سنان باشا عارضين عليه استعداد الهيئة للتخلي عن قلعة طرابلس وتسليم الأسلحة، بشرط تأمين الحياة والحريات وسلامة الممتلكات والسفر إلى صقلية أو مالطا فوق مراكب عثمانية.

تردد سنان في قبول الشروط لكنه وافق أخيرا، وأرسل مع هذين المندوبين ضابطا موثوقا به، كلفه أن يقدم تقديره واحترامه إلى حاكم طرابلس المالطي ويطلب منه الحضور الى خيمته للتفاهم. وإذا رغب في الحصول على ضمانات لذاته، فان سنان يترك له هذا الضابط رهينة.

وتم التفاهم وفتحت أبواب مدينة طرابلس يوم 14 أغسطس من نفس العام للقوات العثمانية فاستباحوها وفي يوم 16 من نفس الشهر، كانت طلقات المدافع العثمانية تحيي مدينة طرابلس الغرب التي لم تعد خاضعة للقوى المسيحية وأصبحت جزءا من الإمبراطورية العثمانية [25].

هوامش الفصل الأول

1- أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس: مكتبة الفرجاني د.ت، ص 184، 185. وأنظر شارل فيرو، مرجع سابق، ص64.

* الكاردينال اكسمينس، هو أسقف مدينة طليطلة ورئيس وزراء أسبانيا. كان من غلاة المذهب الكاثوليكي. وهذا يذكرنا بالحماس الصليبي الأول، أثناء دعوة البابا أربان الثاني عام 1095 لمسيحي أوربا، بالتوجه الى فلسطين لاحتلال بيت المقدس وتخليصه من أيدي المسلمين.

2- تيسير بن موسى، الاحتلال الأسباني-المالطي لطرابلس 1510-1551، مجلة الفصول الأربعة، طرابلس، العدد 84، ناصر/ يوليو، 1988، ص 91.

3- جان كلور زليتنر، طرابلس ملتقى أوربا وبلدان وسط أفريقيا 1500-1795، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، طرابلس: دار الجماهيرية، ط1، 2001، ص 29.

4- المرجع نفسه، ص 29.

5- ولد الكونت بيترو دي نافارا عام 1460 م، وهو شخصية ذات تاريخ عسكري مدهش، ترقى من مجرد عسكري الى درجة جنرال لكفاءته، وكان رجلا مفطورا على حب المغامرات. عمل بالقرصنة البحرية في مستهل حياته. وقد نفذ فيه حكم الاعدام عام 1529 م، بسبب خدمته مع الفرنسيين ضد بلاده أسبانيا. للمزيد راجع، اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي، تونس: الدار العربية للكتاب، ط 2، 1991، هامش ص 168، 169.

6- اتوري روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة خليفة محمد التليسي، طرابلس: المنشأة العامة للنشر، 1985، ص 29. وأنظر أيضا، حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الاسلامي الى الغزو الفرنسي،

المجلد الثاني جـ 2، 3، بـيروت: العـصر الحـديث للنـشر والتوزيـع، ط 1، 1992، ص 434.

7- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 73.

8- اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، مرجع سابق، ص 169.

9- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 434.

10- ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، تـصحيح وتعليـق الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس: مكتبة النور، ط 2، 1967، ص 171، 172.

11- اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، مرجع سابق، ص 171، 172.

12- تيسير بن موسى، مرجع سابق، ص 95.

13- جان كلود زليتز، مرجع سابق، ص 31.

14- اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، مرجع سابق، ص 167، 168.

15- المرجع نفسه، ص 176، 177.

16- المرجع نفسه، ص 177.

17- كوستانزيو برينا، مرجع سابق، ص 34.

18- تيسير بن موسى، مرجع سابق، ص 99. وانظر أيـضا اتـوري روسـي، ليبيـا منـذ الفتح، مرجع سابق، ص 184.

19- ابن غلبون، مرجع سابق، ص 21.

20- الطاهر أحمد الزاوي، مرجع سابق، ص 124.

21- كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 23.

22- جان كلود زليتنر، مرجع سابق، ص 58.

23- اتوري روسي، طرابلس تحت فرسان القديس يوحنا، مرجع سابق، ص 83.

24- كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 51.

25- المرجع نفسه، ص 60.

obeikandi.com